قدوم الغريب إلى بسكوس، وتجليات الصراع بين الخير والشر

د.عبد الرفيق بنيس
باحث من مدينة طنجة
المغرب

الملخص:

يشكل وصول الغريب إلى قرية بسكوس في رواية"الشيطان والأنسة بريم" للكاتب باولو كويلو نقطة الانطلاق للصراع الفلسفي والأخلاقي الذي تقوم عليه الأحداث. فمنذ ظهوره، مقرونًا بالشيطان في رؤية العجوز برتا، يتحول حضوره إلى نذير باختبار يطال القيم الإنسانية، ويضع أهل القرية أمام سؤال جوهري حول طبيعة الإنسان: هل يميل إلى الخير بفطرته أم إلى الشر عندما يواجه الإغراء؟ وتؤدي برتا دور الرائية التي تستشعر الخطر قبل الآخرين، وتمثل ضمير القرية وعينها الساهرة، إذ تستشعر الخطر الذي يحمله الغريب وتدرك أنها ستكون الضحية المختارة في سبيل وهم الخلاص، بينما يظل الغريب شخصية غامضة يحمل ماضيًا مأساويًا يجعله يسعى إلى اختبار البشر أكثر من السعي إلى الانتقام، حيث تدور الأحداث بفضاء قروي هادئ سرعان ما سيتبدل إلى فضاء مشحون بالترقب والخوف، لتكشف الرواية انزلاق أهل القرية وراء الطمع، فتتحول «بسكوس» إلى نموذج مصغر للمجتمع الإنساني الذي يُختبر فيه الضمير الأخلاقي. ومن خلال هذا الصراع، تطرح الرواية سؤالًا وجوديًا حول قدرة الخير على مقاومة الشر وتغلب الإنسان على إغراءاته، كل ذلك عبر توظيف لغة بسيطة وإيقاع سردي رصين يخفي وراءه أبعادًا فلسفية ورمزية عميقة، تؤسس للصراع المركزي بين الخير والشر الذي سيحكم مسار الرواية بأكملها.

Summary

The arrival of the stranger in the village of Biskos in Paulo Coelho's novel "The Devil and Miss Prym" marks the starting point of the philosophical and moral conflict upon which the events of the novel are built. From the moment of his appearance, associated with the devil in the vision of the old woman Perta, his presence becomes a warning sign of a test that challenges human values and confronts the villagers with a fundamental question about human nature: Is human beings' inclination toward goodness innate, or do they turn toward evil when faced with temptation?

Perta plays the role of the seer within the narrative structure; she represents the conscience of the village and its vigilant eye, as she senses the danger carried by the stranger before anyone else recognizes it. She realizes that she may become the chosen victim sacrificed for the illusion of salvation. Meanwhile, the stranger remains an enigmatic figure carrying a tragic past that drives him to test human beings rather than merely seek revenge. His presence introduces a psychological and philosophical dimension that transcends his role as a simple character within the plot.

The events unfold in a quiet rural setting that soon transforms into a space filled with anticipation, fear, and tension. Through this transformation, the village of Biskos becomes a miniature representation of human society, where moral consciousness is put to the test. The villagers' pursuit of wealth reveals their gradual submission to greed, exposing the fragile boundary between ethical principles and personal desires.

Through this conflict, the novel raises an existential question concerning the ability of goodness to resist evil and the human capacity to overcome inner temptations. Coelho achieves this through a simple narrative language and a balanced storytelling rhythm that conceal profound philosophical and symbolic dimensions, establishing the central struggle between good and evil as the driving force that shapes the entire course of the novel.

مقدمة:

صدرت رواية "الشيطان والآنسة بريم" للكاتب البرازيلي باولو كويلو[1] " Paulo coelho " بلغتها الأصلية، البرتغالية، تحت اسم O *Demônio* e a srta *Prym*"، ترجمت إلى العربية من طرف جواد صيداوي وبسام حجار، وقام روحي طعمة بتدقيق لغتها. وردت الرواية في 188 صفحة، واحتوت على مقدمة مميزة للمؤلف بين فيها مدى تأثره بالتراث العربي الإسلامي، وبالجانب الصوفي منه خصوصا، كما خط ملاحظات قيمة بينت البعد الإنساني للرواية، والصراع المعتاد في النفس البشرية بين الخير والشر. تحمل الرواية بين طياتها السمات الفنية الحديثة لأدب كويلو الذي يعد ظاهرة فريدة، حظيت أعماله الروائية بإقبال كبير، خاصة روايته العالمية "الخيميائي" التي ترجمت إلى أزيد من ثمانين لغة، وزع منها ما يزيد عن 65 مليون نسخة، وحققت رقماً قياسياً في موسوعة غينيس لكونها أكثر كتاب مترجم لمؤلف على قيد الحياة. تميزت كتاباته بفلسفة الحياة والقدرة على الولوج إلى أعماق ذواتنا، لسبر أغوارها.

لعل أول ما يثير القارئ لرواية "الشيطان والآنسة بريم"، هو العنوان ذاته، باعتباره من أهم المشيرات النصية التي نلج عبرها عالم الرواية، وقد جاء هنا مؤلفا من عنصرين متقابلين: أحدهما ناري غير مرئي "الشيطان"، والثاني ترابي إنساني "الآنسة بريم"، فالعنصر الأول يشكل قوة خفية حاضرة في وجدان الإنسان، باعتباره يمتلك قدرة على التأثير عن طريق الوسوسة وتوجيه الأفعال بكيفية دراماتيكية، غير أن هذه القوة تماثلها قوة أخرى تتجسد في الإنسان/المرأة:"الآنسة بريم" باعتبارها تشكل بعدا لا يقل قدرة على مجابهة الشيطان، إنها رمز الخصب والإنجاب، بل هي الحياة والخير والصيرورة البشرية. وبذلك يحيل العنوان، بما ينطوي عليه من مكوّنات دلاليّة وإيحائيّة إلى صورة رمزيّة تُجسّد ثنائيّة الخير والشرّ، ويُمهّد منذ الوهلة الأولى لصراع قيمي يتجاوز حدود الحكاية إلى أبعادٍ إنسانية كونية.

الخير والشر في مواجهة إغراء الذهب:

تدور أحداث الرواية حول شخص غريب يحل بقرية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها 280 فردا من الرجال والنساء، بعد أن هاجرتها الأسر التي لديها أطفال صغار. يصل هذا الغريب ومعه كمية كبيرة من السبائك الذهبية، حامِلًا عرضًا صادمًا يقلب سكون القرية رأسا على عقب، ولأسبابٍ غامضة، يقترح على أهل القرية أن يتخلّى لهم عن السبائك الذهبية التي ستحل مشاكلهم الحياتية، وتذهب عنهم الفقر إلى الأبد، مقابل شرطٍ واحد صادم، أن يتّفقوا جميعًا على ارتكاب جريمة قتلٍ لشخصٍ يختارونه من بينهم. وهنا تنفجر الأسئلة الأخلاقية في وجه سكون القرية، ويتحوّل العرض إلى اختبارٍ قاسٍ يكشف ضعف القيم حين تُوضَع في مواجهة الإغراء، ويكشف قابليتها للاهتزاز أمام سطوة الطمع وبريق المنفعة.

في عالمٍ يتنازع فيه الخير والشرّ في صراعٍ أبديّ، تتكاثر الأسئلة وتتشعّب: ما الذي يدفع الإنسان إلى أن يكون خيرًا أو شريرًا؟ أهي الفطرة، أم التربية، أم الظروف، أم تلك الرغبات الخفيّة التي تتوارى في أعماق النفس؟ وهل نحن مُطالبون بأن نختار أحد الجانبين ونلتزم به التزامًا مطلقًا، حتى حين تبدو إغراءات الشرّ أكثر بريقًا وجاذبيّة؟ أترى الشرّ يفتقر فعلًا إلى الجرأة كي يبوح بما نُخفيه في دواخلنا من نزعاتٍ معتمة، ومن رغبةٍ دفينة في الهيمنة والتملّك؟ إنّها تساؤلاتٌ تضع الإنسان في مواجهة ذاته، حيث لا يكون الصراع خارجيًا فحسب، بل معركةً داخليّةً تتجاذبها الرغبة والضمير، والضعف والإرادة. في هذه الرواية، لا يقدّم باولو كويلو إجاباتٍ حاسمة، بل يدفع القارئ إلى التأمل في معنى الحرية، ويجعل منها بوابةً لفهم هذا الصراع، محاولا سبر أغوار النفس البشرية، وواضعًا شخصياته في مواجهة اختبارات قاسية داخل عالمٍ متخيَّل يمتزج فيه الغيب والأسطورة بواقعٍ يوميٍّ بسيط بتفاصيله الصغيرة، ففي قريةٍ باهتة الملامح، لا تضمّ سوى بيوتٍ معدودة وسكّانٍ مسنّين آثروا البقاء ولم يرحلوا إلى المدينة، حيث تؤدي الحكايات المتوارثة دورًا أساسيًا في ترسيخ القيم وصونها، تتكشّف أحداث الرواية، فقد ظلّت الحياة هناك

[1] " باولو كويلو "paulo coelho " ولد في "ريو دي جانيرو" بالبرازيل في سنة 1947م قضى ثلاث سنوات في مصحة نفسية عندما كان في السابعة عشرة من عمره. عمل كاتباً درامياً وصحفياً ومديراً مسرحياً، وألف بعض الأغاني الشعبية. ترجم له عربياً: إضافة إلى رائعته "الخيميائي"، "على نهر بيدرا جلست وبكيت"، "حاج كومبوستلا "، "فيرونيكا تقرر الموت "، "الجبل الخامس "، و"الشيطان والآنسة بريم"، عمل مستشارا خاصا في اليونسكو ضمن برنامج " تقارير الفكر وحوارات الحضارات"، يشرف حاليا على"معهد باولو كويلو"، مؤسسة خيرية مصدر تمويلها هو عائدات حقوق التأليف.

تمضي على وتيرتها الرتيبة، دون أن يعكّر سكونها، إلى أن جاء الرجل الخمسيني يقتاد الشيطان خلفه، حاملا معه حقيبة مثقلة بالذهب والتحديات.

لم يكن عسيرًا على ذلك الرجل، الذي تقمّص اسمًا غير اسمه وادّعى صفاتٍ ليست له، أن يستغل سذاجة القرويين المبهورين بقصص بدت لهم أشبه بالملاحم، عن حياة الغريب أو كارلوس "Carlos" كما أراد أن يكون اسمه، وعن ثروته الطائلة، وعن مغامراتٍ لم يعشها إلا في خياله، ورغم أن همسات الشكّ كانت تتردّد سرًّا بينهم، وأن كثيرين لم يصدّقوا ما يُحكى، إلا أن الكرم الذي كان يبديه كل مساء كان كفيلا بإخماد تلك الشكوك، وبإلباس الأكاذيب مسحةً من التصديق المؤقت.

كانت الآنسة بريم أصغر السكان سنا، اليتيمة البائسة وسيئة السمعة في أعينهم، تعمل نادلة في الفندق الوحيد هناك. وحدها كانت تعرف الحقيقة، بعدما باح لها الغريب بسر قدومه، واختارها لتكون أداته في تنفيذ إرادته، مقابل سبيكة من الذهب ستساعدها في تحقيق كل أحلامها :تغادر القرية، تتزوّج، وتنتزع احترامًا طالما حُرمت منه بين أهلها. وكما أن للآنسة بريم أحلامها التي تغريها في قبول المهمة التي ألقيت على عاتقها، فإن لكل واحد من القرويين أحلامه أيضا ومخططاته الخاصة، التي لم يكن تحسين مستقبل القرية واردا في أي بند منها، لكن تلك هي الذريعة الشريفة التي سيرتكبون المعصية لأجلها. ولحلّ هذه المعضلة الأخلاقية التي نزلت عليهم بغتةً، أخذوا يبحثون عن ذرائع تخفّف وطأة الذنب عن ضمائرهم. كان الشرط واضحًا: خلال ثلاثة أيام يجب أن تُرتكب في القرية جريمة قتل يحظى بها إجماع الجميع. لا يهمّ من تكون الضحية ولا مواصفاتها؛ فالمهم أن سفك حياةٌ واحدة مقابل عشر سبائك من الذهب، كفيل بإعادة الروح إلى القرية المهدّدة بالزوال.

كان المنطق الذي تسلّل إلى عقولهم يقول إن الحياة لا تستمر إلا بكبش فداء، وإن نهايةَ روحٍ قد تكون ثمنًا لبقاء أرواحٍ أخرى. سيؤول الذهب إلى بسكوس إن أُريق دمُ أحد المجتمعين خلال الأيام الثلاثة، أمّا إن لم يُقتل أحد، فسيرحل الغريب بكنزه كما جاء. هكذا اشترط "كارلوس"، وهكذا أراد للآنسة بريم أن تعلن الأمر في إحدى أمسيات الفندق، فقد كان يسعى إلى إثبات أن الخير وهم، وأن البشر بطبعهم أنانيون وطامعون، وأن القيم النبيلة ليست سوى أقنعة خادعة. ومن رحم معاناته الشخصية، التي دفعته إلى التحالف مع الشيطان، أراد أن ينتقم من مصيره القاسي، وأن يحمّل الآخرين بعضًا من الألم الذي عاشه وما يزال يعيشه. من خلال الصراع المحتدم في نفس الآنسة بريم، بين صوتَي الخير والشر المتنازعين على كتفيها، ينفذ باولو كويلو إلى أكثر الأسئلة حساسية في التجربة الإنسانية، أسئلةٍ تتجاوز حدود الزمان والمكان في تلك القرية التي يعيش أهلها تحت وطأة خوفٍ تقليدي من العقاب، يتمسّكون بمعتقداتٍ راسخة ويرفضون كل ما يخرج عنها، وينظرون إلى الحياة بوصفها تمرينًا شاقًا بلا جدوى، يجد القرويون أنفسهم أمام امتحان مصيري: فرصة لتغيير واقعهم، لكن بثمن خطيئة مميتة. فهل هم حقًا جبناء، عاجزون عن كسر قيودهم؟ أم أن في أعماقهم وازعًا أخلاقيًا أصيلًا، وخيرًا حقيقيًا، سيحول بينهم وبين اقتراف الجريمة مهما أغرتهم سبائك الذهب؟

حملت الآنسة بريم قرار الغريب وشرطه الصارم، الذي لا يقبل تعديلًا ولا مساومة، إلى أهل القرية، وطرحته على أبرز شخصياتها: رئيس البلدية، والكاهن، وصاحبة الفندق، وغيرهم من أصحاب النفوذ. لم يعد أمامهم سوى خطوةٍ واحدة: تحديد من سيقع عليه الاختيار النهائي، ذاك الاختيار الذي لا رجعة فيه بعد التشاور واتخاذ قرار التنفيذ. عندما انعقد مجلس القرية ليحسم أمر الضحية، بدت الحيرة غريبةً ومربكة. لم يكن اختيار الاسم يسيرًا كما تخيّلوا؛ فكل احتمالٍ كان يفتح بابًا من الشكّ والخوف. أراد المؤلف لتلك الحيرة أن يضفي على القرار، أيًّا كانت صورته، ثقلًا أخلاقيًا وتحديًا وجوديًا، وأن يدفع الحاضرين إلى حوارٍ متوجّس، يحاول فيه كل متكلّم أن يبرّئ نفسه ضمنًا، وأن يزيح شبح الاختيار بعيدًا عنه، ولو بإلقائه على كاهل غيره. فوجئ الحاضرون بإعلان الكاهن استعداده للتضحية بنفسه فداءً لأهل القرية، غير أنّ المجتمعين سارعوا إلى رفض اقتراحه بإصرارٍ شديد، حتى اضطرّ إلى التراجع عن قراره. وبذلك عاد السؤال أكثر حدّةً: ما دام مجلس القرية قد رفض تضحية الكاهن، فمن سيكون البديل؟ ومن ذا الذي سيُلقى عليه عبء الخطيئة المختارة؟

في هذا المناخ المشحون بالتردّد والخوف، يترك راوي باولو كويلو مساحة الصراع مفتوحة بين الخير والشر، مستعينًا بكل الأدوات الواقعية والرمزية، بل وحتى الخرافية، ليُبرز ادّعاء كلٍّ منهما التفوّق. ويمنح شخصياته حرية الاختيار، اختيارًا لا تحكمه الظروف وحدها بل الإرادة أولًا

وأخيرًا. فالخير والشر، في المحصلة، ليسا قدرًا محتومًا، بل قرارًا داخليًا. ومن خلال الصراع بين قطبي الحكاية: الآنسة بريم وكارلوس من جهة، وصراع بريم مع ذاتها من جهة أخرى، وكذلك القديس الذي تداهمه إغراءات الخطيئة يتبيّن أن الفاصل الحاسم ليس المعرفة ولا الموعظة، بل الجرأة على الاختيار، والإرادة التي تحسم الموقف.

صورة قدوم الغريب: بشائر الاختبار الأخلاقي

لنتأمل في هذه الصورة الروائية المقتطفة من رواية "الشيطان والأنسة بريم": " غير أن برتا كانت تجلس هناك لسبب وجيه. لقد أدركت أن انتظارها قد انتهى في ذلك الصباح، عندما شاهدت الغريب يصعد في الطريق الوعرة، سائرا ببطء نحو الفندق الوحيد في القرية. ثيابه مهملة، وشعره أطول من المألوف، ولحيته نابتة منذ ثلاث أيام؛ لم يكن كما كانت تتصوره. مع ذلك فانه جاء مصحوبا بظله: كان الشيطان برفقته. قالت في سرها: كان زوجي على حق. لو لم أكن هنا، لما رآه أحد. لم تكن بارعة في تقدير الأعمار. لعله بين الأربعين والخمسين. أسرت إلى نفسها: "مازال فتيا". هكذا يقدر المسنون عادة. وتساءلت: كم من الوقت سيبقى في القرية؟ لا شك في أنه لن يمكث وقتا طويلا، لأنه لا يحمل سوى حقيبة صغيرة على ظهره. من المحتمل ألا يبقى سوى ليلة واحدة، قبل أن يستأنف طريقه إلى مصير تجهله، ولا ترى نفسها مهتمة به أبدا. مع ذلك، فان تلك السنوات التي قضتها جالسة على عتبة منزلها، لم تكن سنوات ضائعة، لأنها تعلمت خلالها أن تتأمل جمال الجبال، ذلك الجمال الذي لم تكن توليه اهتماما منذ زمن طويل: لقد ولدت في هذا المكان، وكان هذا المشهد مألوفا لديها.

دخل الرجل الفندق كما توقعت. قالت، في سرها، ربما كان عليها أن تذهب لتكلم الراهب عن هذه الزيارة غير المستحبة، ولكن الراهب قد لا يستمع إليها، وقد يقول: "أنتم، المسنون تتخيلون أمورا غريبة". حسنا، لنذهب، الآن، ولنر ما الأمر. إن الشيطان ليس في حاجة إلى كثير من الوقت لكي يعيث فسادا، كإثارة العواصف، والزوابع، والانهيارات الثلجية التي تدمر، خلال ساعات قليلة، أشجارا غرست قبل مائتي عام". فجأة أدركت أن مجرد علمها بالشر الوافد إلى بسكوس لا يغير شيئا في مجرى الحياة. ثمة شياطين تجيء وتذهب في كل لحظة، دون أن يؤدي حضورها، بالضرورة، إلى زعزعة الأمور. إنها تطوف باستمرار، عبر العالم لكي ترى ببساطة، ما الذي يجري، أو لكي تختبر هذه الروح أو تلك، ولكنها متقلبة المزاج، متبدلة الأغراض جزافا، مسوقة، في وجه عام، بمتعة معركة على قدر من الأهمية. وكانت برتا ترى أن بسكوس ليس فيها شيء مهم أو مميز، من شأنه أن يجذب انتباه أي كان، فكيف بالأحرى انتباه كائن ذي شأن وكثير المشاغل كرسول الظلمات. حاولت التفكير بشيء آخر، ولكن صورة الغريب لم تكن تفارقها. ومالت السماء التي كانت زرقاء لتوها، إلى التلبد بالسحب. "عندئذ سمعت قصفا بعيدا للرعد ثم تلاه قصف ثان، وثالث، ورابع. تلك إشارة إلى هطل المطر، بلا ريب ولكن ربما كانت هذه القرقعة، إذا صدقت مأثورات القرية، تنقل صوت رب غاضب يشكو أناسا ما عادوا يبالون بوجوده. "علي أن أفعل شيئا، فأخيرا جاء من كنت أنتظره". لهنيهات استغرقت في التفكير بكل ما كان يجري حولها. كانت الغيوم تتلبد فوق القرية، دون أن تسمع أي ضجة. لم تكن برتا تؤمن بالتقاليد والخرافات، خصوصا تقاليد وخرافات بسكوس، الراسخة في الحضارات السلتية القديمة التي سادت هذا المكان، في الماضي. ثم دوى صوت الرعد، هذه المرة قربها، نهضت، وحملت كرسيها، وهرعت إلى المنزل قبل أن يبدأ المطر بالهطل. ولكن، فجأة خالج صدرها خوف لم تستطع فهمه. ما العمل؟

"يجب أن يغادر الغريب فورا، تمنت ذلك في قراره نفسها. كانت عجوزا طاعنة لا تستطيع مساعدة نفسها، فكيف تستطيع مساعدة قريتها... لم يكن ذلك كله سوى هذيان. وكان زوجها العاطل عن أي عمل، يحاول أن يخترع أشياء ليساعدها على تزجية الوقت. أما أنها شاهدت الشيطان، فلا يساورها في شأن ذلك أي شك. إنه هو بلحمه وعظامه، مرتديا لباس رجل هرم"[2].

دور الغريب في بناء الفضاء الروائي:

يقوم راوي كويلو بسرد الوقائع المتخيَّلة لصراعٍ معتاد جدّاً بين الخير والشر، لكنه في الوقت نفسه، فلسفيّ وأخلاقي، وفي معرض السعي وراء الإجابات الممكنة، يلجأ هذا الراوي إلى ما يجيدُ صنعه بحذق ودراية، وهو سردُ حكاية، تبتدأ بوصف لحظة تسلل الغريب، حيث نفاجأ في

[2] باولو كويلو،"الشيطان والآنسة بريم"، ترجمة جواد صيداوي وبسام حجار، "شركة المطبوعات للتوزيع والنشر"، بيروت-لبنان، ص: 13- 14-15

بداية هذه الصورة بأحد الغرباء الذي يقتحم قرية هادئة، ساكنة، مسالمة، تدعى (بسكوس) فيحل الغريب بين أهل هذه القرية المقيمة على استقامة أهلها وطيبتهم، وعلى ميراث من الخرافات الهجينة القديمة. وبصحبته شيطان، وهدف يخصه هو رغبته في امتحان طبيعة البشر: هل ينزع الإنسانُ إلى الخير، أم ينزع، فطرياً، إلى الشرّ؟ وهل يُمكنُ أن يكون الخير والشرّ، في طبعه، خالصين؟ فتسمية الغريب تطلقها عليه برتا العجوز، هذه الرائية التي تقيم على عتبة حياة متصلة بالموت، نجدها هنا تراقب الغريب الذي أوقعته المأساة في التجربة لكي يهتدي إلى ذاته، فها هي برتا التي لا تخفي تشاؤمها من وجوده الغامض، تكاد تتلمس بعضا من نواياه بحكم عدم ارتياحها للغرباء الذين يظهرون على حين غرة. ولكن ما هي حكاية الغريب الذي نعلم أن ثمة مجرمين قتلوا زوجته وابنتيه في ماضي الأيام من أجل الحصول على المال؟ هذا الجانب من الحكاية الذي يفترض أن يكون هو الدافع الخاص الذي حرك نوازع الشر لدى الغريب الذي يتسم بصفات شيطانية، إننا نراه يتحرك، ونتعرف على سماته من خلال العجوز برتا التي اعتادت على اتخاذ جلساتها اليومية، عند باب بيتها تنظر إلى المارة، وتحلم بعودة زوجها المتوفى، الذي كان يزورها في أحلامها، فتحاوره ويبادله الحديث، لذا لم ينقطع أمل برتا بعودة زوجها الغائب.

إن وصول الغريب بهيئته المختلفة عن بقية أهالي القرية، اسمه وشكله الغامض وتفاصيل أخرى كلها تحيل على أحد أباطرة المخدرات، الأرجنتيني الأصل، كارلوس، الذي عاش في القرن الماضي، لكنه بالتأكيد ليس هو إنما مجرد رجل غريب جاء إلى القرية بمحض الصدفة، وحين يتجه إلى الفندق الوحيد في بسكوس، يذهب لتسجيل اسمه في سجل الفندق كضيف دائم، سوف يشاهده ويراه أناس آخرون غير العجوز برتا، وبالفعل يتعرف على الآنسة "بريم " أو شنتال كما تدعى، والتي تعمل في حانة الفندق الذي لجأ إليه للسكن، "ففي أقل من ساعتين، كان سكان بسكوس.. قد عرفوا أن رجلا غريبا، يدعى كارلوس.. قد حضر إلى القرية"[3]. تتميز هذه الصورة بروابط دلالية عميقة مع الرؤية الفكرية التي يريد السارد تمريرها عبر أحداث الرواية، فهي جزء لا يتجزأ من نسقها العام. إنها تشير إلى لحظة زمنية جد هامة نظرا لما تحمله في طياتها من مكونات تشكل في مجملها وحدة متسلسلة بباقي الصور الروائية في إطارها الشمولي، حيث تبرز سمات الترقب، والخوف، والجبن، والتضحية، والحيرة، والتحدي الذي يواكب الصراع الأزلي بين الخير والشر، عبر توظيف لغة بسيطة شفافة، في صياغة الأحداث "تعتمد على الألفاظ البسيطة والدلالات والتدرج السردي والإيقاع الروائي البطيء"[4]، إن بساطة القصة كانت تضيق أحياناً على القوام الفلسفي العريض الذي ينيه المؤلف عبر فصول الرواية، فالأسلوب البسيط في الرواية يجذبنا إليها، لا سيما أنها تحمل سمتي الترقب والحماس الملازمين لرواية المغامرة عادة، إلى جانب الدهشة والتنوع اللذين يرافقان أحداثها.

الوصف وبناء الدلالة في الرواية

اعتمد راوي كويلو المباشرة في اللغة واستثمر براعته في التصوير، فضلا عن براعته في توظيف الوصف باعتباره وسيلة تعبيرية وإبداعية تعمد إلى تعميق الدلالات الإيحائية لهذه الصورة، فهنا نجد الراوي يقدم أدق التفاصيل "عندما شاهدت الغريب يصعد في الطريق الوعرة، سائرا ببطء نحو الفندق الوحيد في القرية. ثيابه مهملة، وشعره أطول من المألوف، ولحيته نابتة منذ ثلاث أيام، لم يكن كما كانت تتصوره"[5]، لم يهدف الراوي إلى تقديم صورة لحقيقة طبيعة النفس البشرية فحسب، بل كان يهدف إلى إخضاع القارئ لعملية التخيل بغية تحقيق انسجام وتآلف بين الواقع والخيال، حيث يسرد الوقائع المتخيَّلة لصراعٍ معتاد بين الخير والشر، عبر سرد حكاية تدور أحداثها في قرية "بسكوس" وفضاءاتها المختلفة، حيث يلعب المكان دورا هاما، تنتظم فيه تفاصيل الأحداث، " يتحول المكان من مجرد إطار يحتوي الشخصيات والأحداث إلى مكون سردي يخلق الأحداث ويشكل الشخصيات ويصنع المصائر، إن لم نقل إنه يولد السرد ويمنحه الحياة"[6]، وقد ساهم سرد الراوي للوقائع بشكل متسلسل بتواز مع المكان في تحقيق انسجام النص الروائي، وتفاعل القارئ مع أحداث الرواية.

---

[3] المصدر نفسه، ص:18

[4] محمد أنقار، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية (صورة المغرب في الرواية الاسبانية)، مكتبة الإدريسي للنشر والتوزيع، تطوان، الطبعة الأولى، 1994م

[5] باولو كويلو ،" الشيطان والآنسة بريم "، ص: 13

[6] محمد مشبال، صورة تطوان في رواية " المصري"، مجلة المجرة، عدد 11 ،2007م، ص :7

إذا كان كويلو قد وظف الوصف باعتباره أداة تساهم في إضفاء مسحة جمالية على الصورة، ويحمل في طياته دلالات وأبعادا عميقة، فقد استعان أيضا بمجموعة من المظاهر البلاغية التي ساهمت في إثراء بنى النص والكشف عن جماليته والقيم المتضمنة فيه "ثم ما هي البلاغة إن لم تكن مساهمة في بلورة البناء وإغناء الرؤيا والكشف عن القيمة الإنسانية بشتى الصيغ، بما فيها الصيغ اللغوية العاطلة من الزخرف"[7]، كما استند الراوي إلى سمة التدرج باعتبارها "سمة متأصلة في الطبيعة البشرية قبل أن تكون سمة سردية "[8]، وبكونها مظهرا جماليا تضفي على الحدث جمالية وبلاغة؛ فباقتراب الشيطان تحولت السماء التي كانت صافية ومشرقة إلى سماء تلبدت بالغيوم وتوالت ضربات الرعد مشكلة إرهاصات لبداية تأزم الوضع، ثم توالت القصفات.. إلى أن دوى صوت الرعد، هذه المرة قربها، فالاحتمال الأول للرعد هو الصوت الممثل للخير والمطر، فالخير يأتي دون أن يجد أحدا يتكلم معه، أما الاحتمال الثاني لصوت الرعد فيكمن في الدلالة على الغضب والخوف، ومنه يفترض أنه من الأرجح اعتبار تلك الومضة أو الصدمة تنبئ بوصول الشيطان، وإثارة الانتباه إلى شروعه في مهمة الاختبار، فالخطأ والشر لا يأتيان بغتة، أو بالأحرى لم يأتيا بغتة، فالرعد قصف بعيدا في البداية ثم قصف ثانيا وثالثا، إلى أن قصف قرب العجوز، عين القرية، وهو ما يعتبر بداية تأجج الصراع في الرواية، فالصورة هنا تمثل نقطة انطلاق الأحداث وتأججها، لتأكيد دخول الشيطان إلى القرية بغير مانع، فلا يوجد مراقبون قادرون على رؤيته حتى يحتاط منهم سوى هذه العجوز الهرم التي سرعان ما غلبت عليها بعض سمات الخوف والجبن فهرعت إلى منزلها قبل هطول المطر وتوالي الأحداث، قبل أن تتساءل عما يمكن فعله لمجابهة القدر في قولها "ما العمل؟" [9]. هنا نتساءل هل كانت برتا تعرف مسبقا ما كان يخبئ لها القدر؟ خصوصا إذا ربطنا هذه الصورة بما اتفق عليه مجلس القرية في بحثه لتقديم الضحية وتحديدها فيقول مالك الأراضي "لم يبق، إذن سوى العجوز برتا" [10]، ويسمع صوت الكاهن هنا يقدم تبريرا وتأييدا لاختيار برتا العجوز كقربان:"مما لا شك فيه أن هذه المرأة قد عانت كثيرا منذ وفاة زوجها وهي تقضي أيامها، منذ سنين وهي جالسة أمام بابها عرضة لتقلبات الطقس وموت الفجر إنها تعيش على الحسرات فحسب.." [11]، يبرع هنا راوي كويلو في تبرير الخيارات الآثمة من خلال قلب المعنى، وهذه المرة على لسان كاهن القرية، يوظف المعنى في هذا السياق لخدمة مقاصد الشيطان؛ فمن خلال الحوار القائم بين قطبي الخير والشر، يعرض راوِي كويلو جملةً من الأمثلة، ويتقمّص دور "محامي الشيطان"، مستعرضًا حججًا تبدو مقنعة وبديهية، يبيّن بها كيف ينجرف البشر إلى تنفيذ إرادته، وكيف يتقمّص الإنسان هيئة الخيّر لا عن قناعة راسخة، بل لأنه يفتقر إلى الجرأة لاتخاذ القرار الحاسم في حياته.

الرهان الأخلاقي في الرواية

يبدو أن «برتا» كانت تستشعر ما ينتظرها، كأنها تقرأ قدرها سلفًا وتدرك أنها ستكون الضحية المختارة، التي يُتوهم أنها ستجلب الخلاص للقرية، إن برتا تمثل في حقيقتها عين القرية الساهرة وضميرها اليقظ؛ فهي الحارس الذي لا ينام. ومع ذلك، يستعد أعيان القرية لتقديم هذه «العين الجماعية» قربانًا في سبيل الذهب، من غير أن يتساءل أحد: أهو ذهب حقيقي أم مجرد سبائك زائفة، وبريق خادع لا أكثر؟ وحدها برتا ترى ما يعجز الآخرون عن رؤيته، أو يتعمّدون تجاهله. فهي لا تغض الطرف عن الغريب الذي أطلقت عليه لقب «الشيطان»، ذاك الذي دخل القرية حاملًا بذور الشر، لا ليغوي الأفراد فحسب، بل ليمتحن ضمير الجماعة بأسرها في بسكوس. تدرك ذلك بحدسٍ فطري في أعماقها، وتبلور في وجدانها منذ اللحظة التي رأت فيها الغريب يتجه إلى الفندق الوحيد في القرية ليقيم فيه، وكأن حضوره لم يكن عابرًا، بل كان بداية امتحان أخلاقي عسير.

تتوفر الرواية على زخم من الوضعيات التي يمتحن فيها الخير والشر في صراعهما التقليدي المعروف، وهي وضعيات يبرع الراوي في تقديمها بأسلوب سردي مشحون بالتفاصيل والمعاني. فالقرية تمثل هنا نموذجًا مصغّرًا للمجتمع البشري، حيث يسود قانون الغابة: القوي يلتهم

---

[7] محمد أنقار، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية (صورة المغرب في الرواية الاسبانية)، ص 17.

[8] محمد أنقار، "ظمأ الروح" أو "بلاغة السمات" في رواية نقطة النور لبهاء طاهر، منشورات مرايا، الطبعة الأولى، طنجة، ص 33

[9] باولو كويلو، " الشيطان والآنسة بريم"، ص: 15

[10] المصدر نفسه، ص: 137

[11] المصدر نفسه

الضعيف، والضعيف يتشبث بأوهام النجاة كآخر أمل له. وكل شيء في هذه المعادلة يقوم على المصلحة الذاتية البحتة، وهذا ما تعكسه السخرية المبطنة التي تسلط الضوء على ضعف القيم أمام طموحات السلطة والجشع في هذه الصورة "وكان زوجها العاطل عن أي عمل، يحاول أن يخترع أشياء ليساعدها على تزجية الوقت"[12]، فالعجوز فوق عجزها تتلقى مساعدة من شخص أعجز منها هو زوجها المتوفى أو العاطل عن أي عمل كما نعته الراوي، لقد كان يزورها في أحلامها، يبادلها الحديث للتخفيف عنها، لذا لم ينقطع أمل برتا بعودة الزوج الغائب لمساعدتها، ولم تستسلم"علي أن أفعل شيئا، فأخيرا جاء من كنت أنتظره"[13]، كما أنها ردت على الكاهن عندما أراد أن يقدم لها النصائح:" لا فائدة من ذلك أنت لا تعرف الخير، لقد تسممت بالشر الذي نلته منهم، وها أنت، ألا تنشر الوباء في أرضنا إنك لا تختلف عن ذلك الغريب الذي جاء لتدميرنا"[14]. لقد وجدت القرية نفسها في خضم الامتحان الكبير، ذلك الرهان الأخلاقي والوجودي الذي يختبر قدرتها على تقديم الضحية المناسبة. إنه دخول مباشر إلى حلبة الصراع الأزلي بين الخير والشر، حيث تتقاطع الإرادات وتتنازع المآلات. ويظل السؤال: هل يمكن للشر أن يفرض سيطرته على مصائرنا، كما نسعى نحن للظفر بالخير ونعيمه؟

أراد راوي باولو كويلو أن يمرّر أكثر من رسالة حول ماهية الخير والشر وحدودهما المتداخلة في النفس البشرية. تتجسد هذه الرسائل في صورة درامية قاسية حين يبدأ البحث عن الضحية: من الذي سيفتدي القرية ليجلب لها المال والسعادة الموعودة؟ إن المشهد بالغ الإيلام؛ إذ يبدو الجميع على استعداد للتضحية بالعجوز برتا، في لحظة ينكشف فيها ضعف الضمير الجماعي أمام إغراء الثروة. غير أن الآنسة بريم تتخذ موقفًا شجاعًا في مواجهة الغريب، وفي مواجهة فكرة التضحية ذاتها، فتقف سدًا أمام الشر القادم معه. إنها ترى فيه ذئبًا يتربص بالقرية وكبريائها، وعاملًا من عوامل الانزلاق نحو الخطر والدمار، ومن خلال هذا التوتر، يلمّح السرد إلى أن الانحراف الأخلاقي لا ينشأ دائمًا من الداخل وحده، بل قد تحفّزه عناصر خارجية تجد في هشاشة النفوس مدخلًا لها. وهكذا تتحول القرية إلى مسرح اختبار حقيقي: ليس فقط لقدرتها على مقاومة الشر، بل لقدرتها على تعريف الخير ذاته، حين يُغرى الجميع بثمنٍ يبدو في ظاهره خلاصًا، وفي جوهره هلاكا.

[12] المصدر نفسه، ص: 15

[13] المصدر نفسه، ص :13

[14] المصدر نفسه، ص :165

خاتمة:

لقد غدا الجنس البشري، منذ بداياته الأولى، محكوما بالسعي في إطار الانقسام الأبدي بين نقيضين: الخير والشر، ففي غضون أسبوع واحد فقط، نجد أن أشخاصا عاديين يُدفعون فجأة إلى مواجهة مصيرية مع الحب والموت، ومع الفقر والمال، وكأن الزمن القصير يكثّف التجربة الإنسانية ويعرّي جوهرها. لطالما اعتُقد أن التحولات العميقة، سواء على مستوى الفرد أم المجتمع، لا تحتاج إلى مدد طويلة، بل تنفجر في لحظات خاطفة تقلب الموازين. فالحياة تباغتنا، من حيث لا نتوقع، بتحديات تختبر شجاعتنا الحقيقية ورغبتنا الصادقة في الاختيار، كما حدث مع العجوز برتا. لذلك لا جدوى من التظاهر بأن شيئًا لن يقع، أو الاحتماء بذريعة أننا لسنا مستعدين بعد؛ فالتحدي لا ينتظر، والحياة لا تعود إلى الوراء. أسبوع واحد قد يكون أكثر من كافٍ ليحسم الإنسان موقفه: هل يقبل قدره كما يُراد له، أم يجرؤ على محاولة إعادة صياغته؟ وهنا تتجلى موهبة الراوي في نسج التفاصيل الدقيقة والمواقف المدهشة، إذ لا يكتفي بعرض الصراع، بل يمدّ الخير بأسباب تحققه، ليغدو إمكانية واقعية قابلة للتجسد في الحياة، لا مجرد انتصار رمزي على صفحات الرواية.

ينتظم الحدث الروائي والفكرة في هذه الرواية ضمن حبكة درامية محكمة تكشف ملامح القوى المحرِّكة من خلال أفعال الشخصيات وأفكارها، من غير أن يفرض الكاتب حكماً جاهزاً، بل يفسح المجال للقارئ ليكوّن رؤيته استناداً إلى مواقف وسلوكيات. وفي الوقت ذاته، يتوغّل السارد في أعماق النفس الإنسانية، مستقرئاً خباياها عبر نافذة تنفتح على عوالم الحياة بتعقيداتها وتشابكاتها. يلتقط الراوي مشاهد خاطفة يصوغها خياله في مسارات سردية مشبعة بالرمز، متداخلة مع الأسطورة، ومفعمة بحسّ إنساني رفيع، في أسلوب روائي يرحل بذهن القارئ إلى فضاء ثري بالتأملات الفلسفية، لا ينفك يضيء المعنى ويعمّق الدلالة. استعان كويلو في مخاطبته وجدان القارئ بلغة مشبعة بالإيحاء، خلقت جواً من التفاعل بين الرواية والقارئ، هذه اللغة ليست مجرد وسيلة سرد، بل مصابيح مضيئة في عتمة التجربة الإنسانية، قد تُوقظ في النفس أملاً خامداً وأبواب للتأمل في ذاته ومن حوله، كي يستشف الدروس التي تلقي بها الحياة في طريقنا، ويضمنها كويلو بسخاء بين السطور، إنها ومضات تجبر العين المتعجلة على التمهل، وتدعو العقل إلى التأمل، والقلب إلى الإصغاء، لاستخلاص الحكم والدروس التي تخاطب الوجدان، وإدخالها مختبر التجربة الذاتية، وتدوينها في مفكرة الوعي لتتحول من كلمات إلى مواقف. إنّها دروسٌ تُخاطب الوجدان الإنساني في رحلته الطويلة، عبر محطّات السعي والكلل، والنجاح والإخفاق، والفرح والانكسار، والإرادة والتردّد. فهي لا تقتصر على حكايةٍ سرديّة، بل تمتدّ لتلامس التجربة الإنسانيّة في أعمق تجلّياتها، حيث يتعاقب الأمل واليأس، وتتقاطع الرغبة مع الواجب.

يمكن القول إن القيمة الجوهرية في هذه الرواية تتمثل في أن الدروس الأعمق التي نتلقّاها في الحياة لا تأتي من التجارب المنسجمة مع طباعنا، بل من تلك التي نصطدم بها وتدفعنا إلى مواجهة أصعب ما في الوجود الإنساني: حرية الاختيار وما يكتنفها من مشقة ومسؤولية. وعلى الرغم من أن القارئ قد يستشرف الحدث قبل أن يرويه السارد، فإن تميّز الكاتب لا يكمن في عنصر المفاجأة بقدر ما يتجلّى في تأملاته الفلسفية لذلك الحدث، وفي قدرته على النفاذ إلى أعمق مناطق الصراع الخفي في النفس البشرية. فهو لا يكتفي بسرد الوقائع الظاهرة، بل يزيح الستار عما تضمره المواقف المعلنة، ليغوص في التصورات الباطنية للشخصية ويكشف عن عالمها الداخلي بكل تعقيداته. رغم أنّ باولو كويلو اختار أن يجعل نهاية الرواية[15] مفتوحة، فإنّ القارئ يمتلك، بلا شكّ، من الخيال والإرادة والتبصّر ما يكفي لرسم النهاية التي يراها منسجمةً مع قناعاته وتجاربه، وهكذا تتحوّل القراءة من تلقٍّ سلبيّ إلى مشاركةٍ فعّالة، يسهم عبرها القارئ إلى بلورة المعنى وصياغة المآل، واختيار الأنسب.

المراجع:

- پاولو كويلو، الشيطان والآنسة پريم، ترجمة جواد صيداوي وبسام حجار، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت – لبنان.
- محمد أنقار، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية (صورة المغرب في الرواية الاستعمارية)، مكتبة الإدريسي للنشر والتوزيع، تطوان، الطبعة الأولى، 1994م.
- محمد أنقار، ظمأ الروح أو بلاغة السمات في رواية نقطة النور لبهاء طاهر، منشورات مرايا، الطبعة الأولى، طنجة، 2007م.
- محمد مشبال، صورة تطوان في رواية " المصري"، مجلة المجرة، عدد 11 ،2007م.